«في بلد الرجال» اول عمل روائي لليبي هشام مطر

عن طرابلس الغرب.. شارع التوت وعالم تكشفه عيون طفل تبحث عن البراءة التي تتجادل مع السياسة

ابراهيم درويش*

■ رواية الليبي هشام مطر «في بلد الرجال» الصادرة حديثا بالانكليزية رواية مكثفة في رسمها لاجواء الخوف والترقب في ليبيا في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، ولكنها عن العلاقات الانسانية، والعالم كما تراه عينا طفل في التاسعة من عمره، فهي وان اهتمت بالسياسة وما يحدث في البلاد من تلك الفترة، من ناحية ممارسة اللجان الشعبية وناحية عبثية المعارضة، فهي عن العلاقة بين الام والاب والابن وعن علاقات الجوار وشقاوات الاطفال. العالم الذي يقدمه لنا مطر ويكشف عن تلافيفه هو الذي يراه الطفل ويفسره ويفهمه، فهو بين البراءة والفضول الباحث عن جديد يكشف صورة عن توتر العلاقة بين الاب والام، وخداع اللحظة، فهشام مطر يمارس لعبة مخادعة في الكشف عن نوايا شخوصه الكبار، هذا الخداع يبرز في الطريقة التي قدم فيها شخصية الام التي لم نعرف اسمها الا في الفصل التاسع من الرواية، نجوى التي كانت الام في البداية تشرب دواء ذا رائحة يجعلها تهلوس. وفي عين الطفل الحنونة فالام بحاجة للعناية خاصة ان الاب يسافر طول الوقت ليتابع اعماله، كما ان الخداع الذي يكتشفه الابن، عندما يشاهد الاب مع سكرتيرته في ساحة الشهداء يلبس نظارة سوداء ويختفي، وذلك عندما تخرج والدته بالسيارة لشراء ما تحتاجه في البيت من السوق، فالابن الذي قيل له ان الاب سافر للخارج يندهش عندما يكتشف ان والده موجود في العاصمة وقريبا من البيت. ما يشغل الابن ايضا هو عيون الرجال الذين كانوا يجلسون في المقهى يلعبون الورق ويحدقون في الام لدرجة ان الابن كان يشعر بالحاجة لحماية امه. سليمان هو العين التي ترسم لنا شكل المدينة التي لا نعرف منها الا البيت وساحة الشهداء والتلفزيون الذي يبث اعترافات العصاة، وبيت الجيران والبحر الكبير الذي يطل عليه من سطح بيته والحدائق المحيطة بالبيت. ولكن سليمان هو المرآة التي نشاهد من خلالها الشخصيات الاخرى، الاب فرج سليمان الديواني، الجار وصديق الاب الاستاذ رشيد وزوجته سلمى وابنهما الوحيد كريم، موسى ابن القاضي المصري، بهلول، مجنون الحارة، مجدي الخباز، شريف المخبر والام السمينة واطفالها. هذا هو عالم سليمان الصغير ولكنه عالم يبدو معقدا بتجادلات السياسة التي ينخرط فيها الاب طامحا للتغيير ولكن جماعته المعارضة تكتشف ويلقى القبض عليها. ما يميز في سرد هشام مطر هو الالتباس والغموض في علاقة الاب والام، فهي وان بدت باردة الا انها حميمية، وهي ان بدت متوترة الا انها تحمل بذور التضحية ليس من اجل الاب وانما الابن الوحيد، الام التي تزوجت في عمر الرابعة عشرة، هي الشخصية المحورية في حياة هذه العائلة الصغيرة، وهي كما خلقت عالمها الخاص من خلال ما يراه الطفل الدواء الكريه الرائحة، ومن هنا فان كان الاب الذي يحب القراءة والسياسة وتجذبه هموم الديمقراطية، وهي امور ممنوعة في البلاد فالام تمارس ايضا عملا ممنوعا لان الشراب والاتجار به محرم في البلاد، ولهذا فهي وان اتهمت الاب بخيانة امانته تجاه الابن، فهي تمارس ايضا نوعا من الخيانة، خاصة انها اكدت لزوجها ان الزمن الجديد يقتضي منه ان يطبق مثل «الحيط الحيط ويا رب الستر»، وان ابنه سيبلغ من العمر 14 عاما بعد خمسة اعوام وانه بحاجة لابيه، وان الزمن ليس زمنهم، لكن الاب يشعر بان من حقه الحلم وهذا الحلم يعتبر ضمانا لمستقبل الام. الابن في حبه للام والاب يشعر بانه امام ازمة ـ ازمة الحفاظ على كليهما، فهو الذي يتقن لعبة الفضول والتنصت والاكتشاف احيانا بالمصادفة او قصدا غير قادر على فهم طبيعة تعقيدات الحياة، وفي محاولته للفهم تجده احيانا يقع فريسة الخوف او الابتزاز، مثلا من المخبر شريف الذي يقف على باب البيت يبحث عن «ادلة» تدين الاب، خاصة بعد اعتقال الاستاذ رشيد، وتعذيبه واعترافه في التلفاز عن مشاركته في نشاطات سياسية ضد الدولة. ومن هنا فسليمان او كما يناديه والده «سولوما» يعيش دوامة براءته وخوفه وحرصه على سلامة والده الذي يختفي من البيت دائما تحت ذريعة العمل والسفر لاستيراد اشياء جديدة وغريبة، اشجار من سويسرا مثلا. لكن ما يثير في الرواية هي ملاحقتها لازمة الام التي تفر من ازمتها الخاصة في البيت ومن ذكريات الطفولة المرة بشرب الخمر، بشكل سري فذكريات الشباب الغض تلاحقها خاصة عندما اجبرت على الزواج من والده لسبب بسيط انها شوهدت بصحبة الرجال في مقهى عام مما جلب الفضيحة والعار على البيت، وادى بعائلتها كما سنعرف لاحقا للمسارعة في تزويجها من فرج الديواني رجل الاعمال، وهو ما اعتبرته «اليوم الاسود» في كتاب ذكرياتها، وهو اليوم الذي لم تتخلص من ذكراه بسبب المغص الذي اصابها ليلة الدخلة وكان سيؤدي لكارثة تعطيل الزواج. ولكن الام التي تقول انها كانت ضحية لتقاليد المجتمع والتي حرمها من القراءة ومتابعة دراستها رضيت بقدرها، وحاولت المواءمة بين واجباتها البيتية واسرارها التي تتدفق بعد تناولها «الدواء/ الشراب» الذي تحضره من مخبر مجدي، مغلفا بغلاف اسود، تسكبه مع الثلج وتشربه مع سيجارة. والابن الذي لا يفهم ماهية الدواء الذي تتناوله يشعر بواجبه نحو امه، حيث يذهب دوما الى فراشها للتأكد من ان نفسها طبيعي وانها لا تعاني من آلام.

فرج الديواني، يبدو في نظر الام التي تريد الحفاظ على كيان الاسرة، ضحية لموسى ابن القاضي ياسين، الشاب الذي اعانه كثيرا، بعد ان رفض اكمال دراسته في القانون اسوة بوالدة القاضي المشهور، وتحدى ارادة والده بمساعدة رجل الاعمال. موسى كان محط اتهام وهو رجل الاعمال الفاشل، الذي جرب كل انواع التجارة، من استيراد عجلات من بولندا ذابت مع زيادة حرارة الصيف الى دمار مزرعة للدجاج مات بسبب حر النهار وبرد الليل، ولكن موسى هو الذي زرع السياسة في ذهن الاب وكان مسؤولا عن تضخيم فكرة التغيير في ذهنه، هذا على الاقل ما تراه الام وتكرر الاتهام له بعد ما تفاقمت الازمة باعتقال الاستاذ رشيد، حيث يضطر للاختفاء ثم يقبض عليه فيما بعد. وعلى خلاف ناصر سكرتير والده الذي لم يكن يكن له حبا، رغم ادبه المبالغ فيه والمصطنع، فان سليمان كان يحب موسى.

تبدو الرواية معنية بالدرجة الاولى برسم مظاهر الخوف والترقب على الابن والام، اما الاب فهو يبدو يعيش عالمه الخاص، عالم الالتزام السياسي مع رشيد وزملائه من المعارضة التي اتخذت من مكتب في ساحة الشهداء مركزا لكتابة مناشير، وهذا الفعل في نظر الام هو بمثابة غباء سياسي، فالساحة هي قلب العاصمة، والمنشورات لا تجلب التغيير ولا تؤثر في النظام، ولكن كما قلنا ان مجرد ذهاب الام مع سكرتيره ناصر، الذي يحمل آلة طباعة للمناشير هو بمثابة حلم ببناء ليبيا جديدة، لكن هذه الدولة الجديدة لم يقدر لها الولادة بسبب انكشاف هذا الفعل السياسي وتشتت افراده. بالنسبة للام كما قلنا هذا فعل عبثي، لا قيمة له. يكشف هشام مطر، دوافع ابطاله بطريقة ذكية وسرد جميل، وهو كاتب قادر على الامساك بكل مجالات السرد، بشكل يؤرخ لولادة كاتب جديد، فهذه هي روايته الاولى. والحقيقة ان الفصول الاولى في الرواية هي الأكثر إثارة خاصة قبل اختفاء الاب، ومحاولات العثور على دليل يدينه، ولعبة المكالمات الهاتفية، وانتظار سيارة بيضاء امام البيت، وغضب والد ناصر على الاب فرج لانه هو الذي ورط ابنه، ثم ذهاب الام الى بيت الاستاذ جعفر، رجل المخابرات الذي يساعد في اطلاق سراح الاب، الذي يبدو انه تعرض للتعذيب، وهذا واضح من حبسه في غرفة النوم لمدة اسبوعين حتى يتعافى من جراحه قبل ان يسمح للابن برؤيته، حتى لا تأتيه الكوابيس في الليل، بعدها يعود الامان للبيت، حيث يستعيد الاب والام الفرحة التي تبدو في لقاءات الفراش، ولكن عودة الاب تعني نهاية الطفولة وعالم الفضول بالنسبة لسليمان الذي يرسل الى القاهرة لكي يعيش مع عائلة موسى في القاهرة وللدراسة هناك.

يغادر سليمان ليبيا في عام 1979، وبعد حين يندمج في الحياة ويدرس الصيدلة، ويتخصص في الدواء ولكنه دواء لا يشبه دواء امه، ومع الابتعاد عن الاهل والبلد تبدو العودة مستحيلة، حيث تتغير احوال الاب، فبعد ان اعلن الاب توبته عن العمل السياسي، عاد لعمله لفترة قبل ان تصدر تشريعات جديدة تحوله الى عامل في مصنع مع امه، يسجن لفترة على خلفية تجاوزات مالية وبعدها يطلق سراحه من السجن، ويعيش ايامه في البيت يتصل احيانا بابنه تماما كما تتصل الام لكي تخبره عن وجبة طعام اعدتها لوالده، او اخبارا عامة عن الحياة في البيت، وتخبره عن رفاق الطفولة، كريم الذي رحل مع امه الى بنغازي بعد اعدام والده، واصدقائه مثل مسعود وعلي الذين خدموا الخدمة الاجبارية في الجيش وشاركوا في حرب تشاد. حرارة البراءة، وثقل الهم على الطفل، ولذة الاكتشاف، والتنصت، والتوتر والتوزع ولعبة الاستفزاز وشقاوات الاطفال ومعاركها في شارع الحي تختفي كما قلت بعد ان غاب الاب في السجن واكتشفت جماعة المعارضة. في البداية عندما كان الطفل يكتشف الاسرار ويتعرف على العالم يرسم لنا هشام مطر عالما غنيا من الشعر والمناظر والافعال الجميلة، رحلة الى الاثار الرومانية مع الاستاذ رشيد، وقصائد تلقى كتبها سيدي محرز عن الزمان الذي مضى والفضاء القفر الذي خلا من رجاله. صور تحت ظل تمثال الامبراطور الروماني الذي يعتقد ان اصله من فلسطين وولد في صبراتة، وصار امبراطورا كبيرا لروما ومات في انكلترا. غناء ورقص، عناق بين شاب وشابة تحت شجرة، وعراك اودى بنظارة الاستاذ رشيد في الطين.. ولكن الرحلة كانت بمثابة تجربة اخرى وانفتاح على العالم. كما ان الفتى الذي يحلم دائما ويفبرك الاحلام لارضاء امه، التي تؤمن بالاحلام وارتباطها بالواقع، باعتبارها جالبة للفرح والحزن، يبحث عن مغامرات خاصة به، فالاحاديث التي ذكرها الشيخ مصطفى امام الجامع عن الصراط المستقيم تجعله يجرب السير حافيا على الطريق الحار جدا، وبطريقة مثيرة للضحك يقفز ويتساءل ببراءة طفل ان كان الناس سيسمح لهم بالقفز على الصراط المستقيم يوم القيامة.

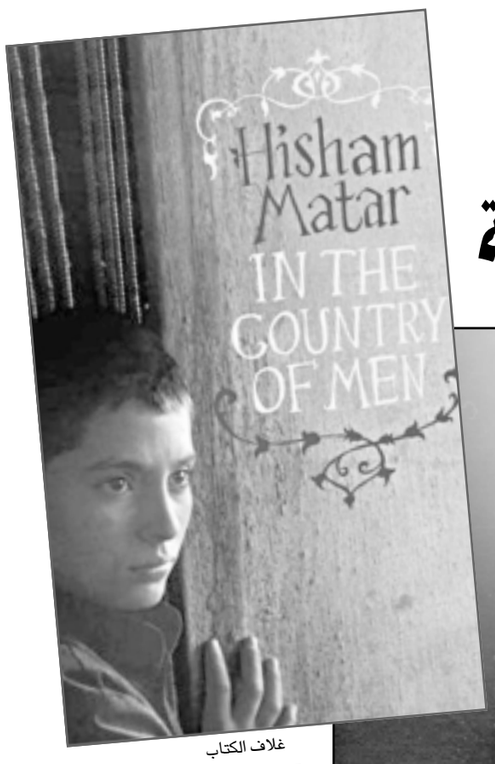

غلاف الكتاب

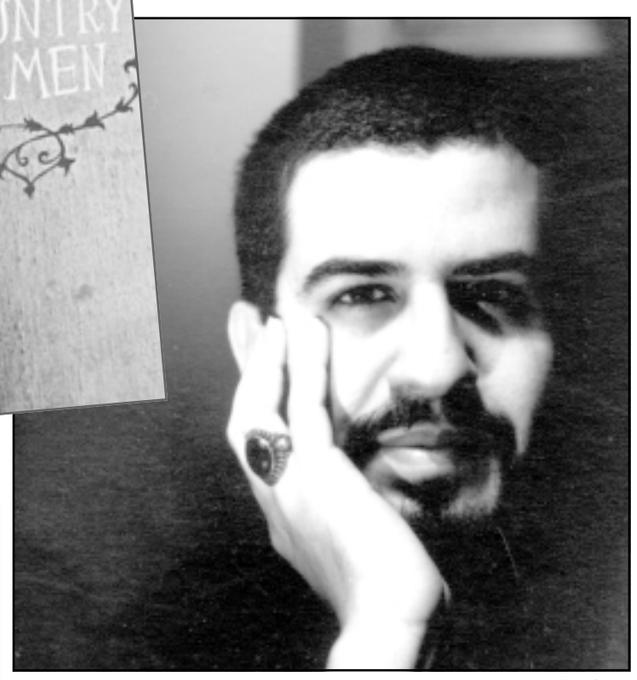
هشام مطر

ومن ثم رحيل الابن لعالم جديد، عندما تتوقف الكاميرا عن تسجيل المشاهد الغنية، التي تثير الضحك، والسخرية وتبعث على الاعجاب والاثارة لانها تكتشف وترسم وتصور لنا هذا العالم. ومع هذا تتكشف لنا اكثر مأساة الام وازمتها التي لم تنس ذكريات «اليوم الاسود» مع ان الكاتب يسجل طقوس تلك الليلة واهمية الدم لاثبات شرف العائلة وطهارتها.

شارع التوت الذي غادره الطفل سليمان لم يتغير، والده الذي سجن بسبب كتاب انقذه من الحريق اثناء الازمة «الديمقراطية الان» يخرج من السجن يتصل به بين الفينة والاخرى «لسماع صوته فقط»، كريم يعود مع امه من بنغازي خوفا من ضياع البيت، يموت الاب، الام تزعم انه مات في نومه بسكتة قلبية، ولكن الام تكذب حيث يخبره خاله انه مات اثناء تناوله الغداء، كريم يخطب سهام اخت ناصر، سكرتير والده. كريم صديق الطفولة غادر شارع التوت بعد عراك مع سليمان، يعود الى حياته من جديد، ناصر نجا من الازمة واصبح مستشارا ثقافيا في سفارة الهند، وهنا سؤال يطرح هل كان ناصر مخبرا؟ ام انه استفاد من العفو ليؤكد موقعه، سؤال لا تجيب عنه الرواية، سليمان، يعيش وحيدا مع ذكرياته في القاهرة، يعانق خاله الذي يلتقيه في مقهى «غروبي»، والذي يحرص على زيارة مكتبة مدبولي لقاء سريعا، يعانقه وتمتلىء عيون الشاب الان بالدموع. وفي النهاية يكون اللقاء مع الام التي كانت سببا في خروج الابن للقاهرة ونفيه، وموت ذكرياته، هذه المرة في طريقها للحج عبر الاسكندرية. الام تخرج من الحافلة ويلوح لها الابن المتردد المأخوذ بحرارة اللقاء ونرفزته يهتف ماما، يعود الشاب طفلا، حيث تقبله الام وتمسد شعره كما كانت تفعل في الايام الخوالي، عندما كان يتسلل الى فراشها، لتحدثه عن ايامها ومأساتها احاديث الليل التي تطالبه في النهار ان ينساها، حارس الاسرار، عاد لاحضان الام، ولكن بعد ان خسر شارعه وطفولته ووالده. سيرة طفل جميلة، عن الفقد، والخيانة، وعن الولاء وعن السياسة ولكنها عن البراءة وعالم الاكتشاف الجديد، وهذا هو ما يجعل هذا العمل جميلا، يبتعد كثيرا عن تفاصيل السياسة التي لا تخدم الا كخلفية او كاطار تدور فيه الاحداث والتي غطت عقدين من حياة ليبيا او شارع في عاصمتها، شارع التوت، شجرة الملائكة التي تذوب في الفم وتفتح آفاقا من اللذة والجمال، ولكن سليمان العائد لحضن امه في طريقها لمكة يبدو الخاسر، لذكرياته، لبراءته ولزمنه..

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

ـ هشام مطر، ولد في نيويورك عام 1970، قضى طفولته في طرابلس الغرب والقاهرة، ويعيش في لندن منذ عام 1986، ويعكف الان على كتابة روايته الثانية، ستصدر رواية في «بلد الرجال» في ثلاث عشرة لغة.

In The Country of Men
Hisham Matar
Viking/2006

مع حبي.. ترشيحا

سليم البيك*

وما زلت أنتظر...

كان ردها سريعاً حين نبض لساني بطلب نطقتْ بأنه أمر... كانت تعني ما تقولُ وكنت أعلم بأنها تعنيه... ولكني أنتظر... حاولتْ أم نسيتْ أم كذبتْ... لا يهم... ما أعلمه أنها عنيتْ ما قالته... تناستْ كل تفاصيل حياتها... كذبتْ على جدتها... وهربتْ.. تماهت مع التلال فلم يدرك إلا الله أي جمال هذا القادم من بعيد... ألتلال عهدها هناك أم لصبية تجري... تتلاحق الحشائش وتتناوب على معانقة قدميها... فمنها من لقي عناقاً... ومنها من ينتظر.

و ما زلت أنتظر...

لم تعد بعد... أو أنها عادت ونسيت الصورَ... أظنها ما تزال تقطف بها صورةً صورة... أو أنها تنتظر تفتحها فتكون أجمل... إلى حينه... تلملم بعضاً مما تبقى من شمس ذلك النهار خفية عن طيور القرية التعبة... تفرد شالها الجليلي بأحمره وأسوده على التراب... تصب فيه ما لملمته وتذوّب به تراباً أقل طراوة من أصابعها... ستخفي شالها بين الصور... هي تعلم بأني لم أر الشمس منذ ولدتُ لاجئاً... تقطف ما تفتح من صور وترجع لعكا... تمشي بين البيوت وعبثاً تسأل أهلها بأن تعطيهم صورة للبيت وتقطفه لتضعه في ما تبقى من مكان في شالها... فترسله لي... مع الصور. ولكن... سُرق البيت... وسُرق الشال... تناثرت الشمس... لم يأت القمر... وما زلت أنتظر...

هي القصة كذلك...

إحدى جميلات الجليل... وما أكثرهن.. أجملهن... كانت تغني وترقص... كانت تذهب إلى البيارة لتعشق برتقالةً قليلاً... تُقبلها... فتتفاعل القطرات الحامضة مع شفاهها الحلوة... وفجأةً... هي خمرةٌ للتو ولدتْ وعُتّقتْ منذ 58 عاماً... أما القطرة التي نجتْ وتخطتْ حدود الشفاه... فلتختبئ ولتنتظرني في حفرة تحت الشفة السفلى...لأسكر بها.

كانت تغني وترقص...

الصبية نرجسية بالمناسبة... تقول إنها أحلى الراقصات... وأروع المغنيات... وأعذب المسكرات... هي أكثر العاشقات شبقاً.. هي كل «جميلات» محمود درويش... وأنا أيضاً نرجسي... أراها قبلة لثورتي على جبهتها... إلهة لم تهتد لها ديانتها بعد... وتنتظرنا لنؤمن بها... هي أشهى من الوطن لثائر... هي من أراني وأسمعني بأن فلسطين لم تصل لنشوة الجمال في الخيال... ما زالت مصرة على أن تكون أحلى... بجليلياتها...هي من ذكرني بأني ما زلت ثائراً... وما زلت أنتظر...كانت تغني... حين جاءتها نسمة جليلية تذكرها بذلك الطلب.. صوراً لترشيحا... حاولتْ... أم نسيتْ... أم كذبتْ... أم غارتْ... نعم... هذا ما اجتاح كيانها وأنهك شغفها حينها... هذا ما كاد يهدد أنوثةً مطمئنة... أترشيحا أكثر حلاً وروعةً وعذوبةً وشبقاً مني... قد تكون... ولكن... أهي أكثر أنوثة... هي ترقص... ولكنها لا تتقن رقصتي... أرقصتها أحلى... صوتها... حضنها... أترابها كلحمي... أطرقاتها كشعري... أحاراتها كنهدي... سأنسى ثانية... وكلما أتتني هذه النسمة... سأنسى... سأنسى كل التفاصيل وأقطف كل الصور... أو أني...

سأرسل صورتي... وأغني: مع حبي... ترشيحا...

وأنا... ما زلت أنتظر...

* الكاتب هو شاعر فلسطيني من ترشيحا مقيم في الإمارات

نعي

تجمّع الأدباء والكتّاب الفلسطينيين ينعى

خليل السواحري

عضو التجمّع، المبدع الكبير، القاص، والناقد، والكاتب الصحفي، الصديق، والأخ، والزميل: خليل السواحري

الذي وافته المنيّة في العاصمة الأردنيّة (عمّان) يوم الخميس 10 آب الجاري...

لقد أثرى خليل السواحري الحركة الأدبيّة والثقافيّة في فلسطين والأردن بنتاجه الخصب المتعدد، وبرعايته للكثير من المواهب، وإبرازها على صفحات الصحف والمجلاّت الفلسطينيّة، والأردنيّة، عندما كان يشرف على الصفحات الثقافيّة...

ولد الراحل الكبير في منطقة (جبل المكبّر) القدس،عام 1940.

صدرت له المجموعات القصصية:

* مقهى الباشورة عام 1975عن وزارة الثقافة السوريّة، والتي اعتبرت قصصها المكتوبة بعد هزيمة حزيران 67 علامة في تطوّر القصّة القصيرة في فلسطين والأردن.
* تحولات سلمان التايه ومكابداته، صدرت عام 1996 عن وزارة الثقافة الأردنيّة.
* مطر آخر الليل، وزارة الثقافة الأردنيّة 2003.

جمع الناقد العراقي الدكتور ضياء خضير الدراسات التي كتبت عن أعمال السواحري القصصية في كتاب بعنوان (قمر القدس الحزين)، وقدم للكتاب بدراسة مستفيضة بيّنت دور السواحري، وأهميّة إضافاته القصصية.

عمل السواحري في عدد من الصحف الفلسطينيّة والأردنيّة حتى ما قبل رحيله بأيام...

ترأس خليل السواحري رابطة الكتّاب الأردنيين التي هو أحد أبرز بناتها ومؤسسيها...

لقد رحل خليل السواحري وهو يتابع انتصارات المقاومة اللبنانيّة على العدو الصهيوني الذي شرّد خليل من وطنه، رحل خليل وهو يتابع صمود أهله في فلسطين، رحل وهو يتابع ضربات المقاومة العراقيّة للاحتلال الأمريكي، رحل وهو يؤمن بعروبة فلسطين، وحتميّة انتصار الأمّة، وبدور الكلمة المنحازة ضدّ كل أعداء الأمّة والإنسانيّة...

لروحك الرحمة يا صديقنا، وزميلنا العزيز...

ستبقى قصصك الجميلة عن حارات القدس القديمة في البال، وستقرأها أجيال فلسطينيّة في وطنها المحرّر السيّد، وهذا هو البقاء، وهذا هو ما يدوم...

تجمّع الأدباء والكتّاب الفلسطينيين
الجمعة 11 آب

دمنا حرام ... يا أبانا

مازن دويكات*

عصفورُ حزنك
ينقرُ القلبَ الجَريحَ ولا يكفُّ

ويحكُّ بالمنقار سنبلةَ الحنين
بروحك العطشى فينشفُ ماؤَها
والياسَمينُ بها يجفُّ

عصفورُ منْ، هذا البليدُ
وشدوهُ رعدٌ وقصفُ

وهناك، تمطرُ في الأعالي
والبساتينُ الحزينةُ دونها المطرُ الخطيبُ
وحقلك الملتاعُ، منتصبَ الترابِ
يصيحُ في القطراتِ:
يا قطرَ الندى
لا شيء يسمعُ في المدى
إلا الصدى:

وصلَ الذبولُ لسرةِ الأشجارِ
وارتفع الردى

والريحُ إنْ ضحكتْ
تبسمها على الشفتينِ عصفُ

نايات صوتك، حلمك الباقي
يؤرخُ أولَ الضحكاتِ، يومَ ولدتِ،
أنت، أولُ من عرفتُ، وأنت
آخرَ ما تبقّى، فاهبطي لنموتَ عشقا
نصفٌ يلاصقُ نصفه
وأناك تدخلُ في أنايَ ويلتقي
غمدٌ وسيفُ

يا جنّة الجنات في الوطن المباحْ
لا شيء أسمعُ من بعيدٍ
غيرَ عاصفة الرياحْ
عبرَ الحدودِ غبارُها
وهنا تحزُّ الروحَ قعقعةُ السلاحْ
وحدي أدافعُ في البدنْ

لاشيء قد وصل الوطنْ
وهنا يحاصرني على الجنبين
عاصفةُ الأخوة
وسلاحُ يهوة
والروحُ قبرةُ ترفُّ

يا أمُّ، هلْ دمنا معطرْ
هلْ طعمهُ أحلى من السكّرْ
وأشهى منْ رحيق الوردْ
وهلْ منْ يحتسيه، ترُى، سيسكرْ
هلْ منهُ دودُ القزِّ يبتكرُ الحرير
ويصيرُ بين يديْ نساء الجند
شالات وقمصانا وحمَالات نَهدْ
فلما إذنْ يا أمُّ يسفكُ في برودة
ويصيرُ في تكريمه
خبراً بأعمدة الجريدة
حبرٌ... دمٌ
ماءٌ... دمٌ
خمرٌ، ولا يهتزُّ طرفُ

عصفورُ حزنك
استثارَ عواطفَ القنّاصْ
شدَّ على الزناد ولا رصاصْ
يا أيها الجسدُ المعبأ بالقرنفلْ
أنتَ الوليمةُ، يا عشاء الروحِ
في الزمن البخيلْ

سيجيئك الكهّانُ والرّهبانُ من بحر الشمالْ
وينصبّون الحاخامَ أجمل قاتل
للزهرِ والأطفال في عيد البرتقالْ
يا شهوة القتل الحَلالْ
شجري حرامٌ أنْ يموتَ بقنبلة
وأبي حرامٌ أنْ يموتَ بحقله
وبكفه المجروح تغفو سنبلةَ
وتصيرَ أمي أرملَة!
دمنا حرام يا أبانا الكردينالْ
دمنا حرام ، فليكنْ
دمُ قطة
في بيتكَ الورديِّ تلهو في دلالْ

فبأيِّ حق تعبدونَ حياتكم
وحياتنا قصفٌ وخسفُ!

هلْ تسمعونَ نشيدَ إنشادي:
أحبك يا بلادي
من دمَارك، وردتي الحمراءُ تصعدُ
ثمّ تشهدُ: آخرُ القتلى سيرجعُ
مثلما ولدتهُ أمي
شهقةُ الموت الحرام ورعشةُ الميلادِ
واحدةٌ،
وواحدةٌ مُدَمرةٌ
وواحدةٌ مُعمرةُ بلادي
يا بلادي يا بلادي

منْ هنا عبرَ الغزاةُ
وغادروك كقبض ريحْ
يا أيها الزمن الجريحْ
ماذا تبقّى للذين أحبهم في جعبتكْ
ظلُّ الوريدُ يضخُّ في فمكَ الكريه
فما ارتويتَ، ولمْ يكفْ

دمُنا حرامْ
فعليكَ يا وطني السلامْ
وعلى بلادي أنْ تنامْ
بهدوء سنبلة وأمنِ فراشةٍ
في حقَلنا المنذّور
للبخّور والنور
فمتى ستخرجُ يا أبانا من دمي
وتعيد لي بين السماوات العلى
والقدس ، موضع سلّمي
ودع الصَليبَ مع الهلالْ
وخذ المسدسَ والسداسية
فلستُ أنا مجوسياً
ولا أمي مجوسية
ولدنا ليلة الإسراءِ، قدسيُّ
وقدسية
فقلْ لي يا أبانا في الحروب
متى سيغلقُ في فلسطينَ الملَفُّ؟!

* شاعر من فلسطين